فيض النبوة وجمالية التجلي في شعر عبد الكريم الفقون

The abundance of prophecy and the aesthetic manifestation in the poetry of Abdul Karim Al-Faqoon

أ. أنيس فيلالي

anisfilali1@gmail.com

جامعة سطيف2

تاريخ الاستلام: 2019/07/31 تاريخ القبول للنشر: 2019/12/09

الملخص–نحاول من خلال هذا المقال تسليط الضوء على شاعر جزائري عبقري هو عبد الكريم الفقون، الذي عاش في العصر العثماني بمدينة قسنطينة، وتنطلق إشكالية البحث من سؤال رئيسي تتناسل منه العديد من الأسئلة الأخرى، فما هي أهم جماليات القصيدة الفقونية؟ ثم كيف مدح عبد الكريم الفقون النبي صلى الله عليه وسلم، و ما هي الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بهذه الشخصية القسنطينية، ومن أجل بيان كل ذلك استعنت بمنهج كرونولوجي يعود إلى الجذور التاريخية للعصر الفقوني مع ربط كل ذلك بجماليات شعره.

Astract— We try from this article to speak about a genius Algerian poet who is Abed elkerim Lefgoun who lived during the ottoman century in Constantine, the problematic of the research starts by essential question from which other questions arises.So,what are the essential easthetics of lefgounian poem?then ,how Lefgoun praised the prophet peace upon him?what are the political ,economical and the sociological situations around this Constantinian figure?In order to clarify all that I helped with a chronological approach which return to the historical of lefgounian period by connecting all that with his easthetic poem.

الكلمات المفتاحية: المديح، النبوي، الفقون، الشعر

Keywords: Lefgoun ; poem ; algerian ; ottman

مقدمة

تنافس الشعراء وتسابقوا في مدح النبي، و التغني بحبه، ونظم الأشعار في قربه، ذاكرين مناقبه ومكارمه متعطرين بسيرته، نذكر منهم شاعرنا الجزائري العبقري، شيخ الإسلام عبد الكريم الفقون، الذي عاش في العصر العثماني بمدينة قسنطينة، التي دبج فيها أروع ما جادت به قريحته في مدح الرسول الكريم، قصائد أربع تموج متراقصة عشقا في حب المصطفى، لترتقي معراجا في مدارج العاشقين، وبلغة صوفية تستمد كينونتها وتفردها من مراتب العشق والوجد لصور الإشراق النبوي الخالد.

وحتى ينجح سفرنا عبر تعاريج القصيدة الفقونية، كان لابد من استكناه عوالم الذات الباطنة، ذات عبد الكريم الفقون، بإرهاصاتها المختلفة، متتبعين إطارها الزماني والمكاني و الإبداعي، ليأتي هذا البحث في قسمين خصص القسم الأول لدراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر عبد الكريم الفقون، أما الجزء الثاني فخصص لبحث علاقة النص بسياقاته الخارجية، سياق السيرة النبوية .

– أولا : الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في عهد أسرة الفقون .

1- الأوضاع السياسية في عهد أسرة الفقون :

كانت قسنطينة في عهد أسرة الفقون تابعة للدولة الحفصية، التي امتدت رقعتها من غرب بجاية وبسكرة و قسنطينة و عنابة إلى ليبيا شرقا، هذه الدولة لم تنعم بالاستقرار الطويل شأنها في ذلك شأن الدولة الموحدية التي سبقتها، وذلك بسبب الخلاف المحموم الدائر حول الحكم، الذي انتقل من طابعه الشوري عند الموحدين إلى طابع نسبي وراثي، وما صراعات المستنصر مع إخوته وعمه إلا خير برهان ودليل على ذلك، فلقد" تنازل لعمه و إخوته عن السلطة، ولكنه قتل إخوته وعمه في يوم واحد "[1]

وأمام هذا الصراع بدأت مفاصل الدولة الحفصية بالترهل، ولم تعد قادرة على صد هجمات الأعداء من الداخل والخارج، ووقفت مقيدة الأيدي بلا حول ولا وقوة، أمام هجمات القراصنة الأسبان الذين كانوا في كل مرة يحتلون منطقة جديدة ، ففي بداية القرن السادس عشر" لم يجد أهل الأندلس من أمراء المغرب القوة اللازمة لإنقاذهم من الأسبان، فراحوا يستنجدون بالدولة العثمانية الإسلامية الصاعدة ، لينتهي ذلك بفرض الحكم العثماني في الجزائر وطرابلس ومصر وتونس في وقت واحد تقريبا ، وكان على بقية النظم ، ومنها النظام الحفصي أن تنهار أمام قوة العثمانين الجديدة "(2)

لتصبح بذلك الدولة العثمانية هي المسيطرة على كامل حوض البحر الأبيض المتوسط، ولا عجب في ذلك لأنها قهرت الأسبان وهزمتهم في مواطن كثيرة، بفضل بسالة كل من الإخوة بابا عروج وخير الدين، وما كانت تلك الانتصارات أن تحقق ما كان مطلوبا منها لولا الدعم الذي لاقته من طرف السكان المغاربة " وبعد الانتصارات التي أحرزها خير الدين لم تستطع أي قوة أن تصمد أمامه ... لم يكن عنصريا شأن كثير من القادة الأتراك، بل كان رجلا وطنيا، وقد تزوج امرأة جزائرية أنجب منها ولدا هو حسن بن خير الدين، الذي سيتولى حكم الجزائر بعد حين "(3)

وبعد انتقال خير الدين إلى الأستانة، حكم الجزائر حسن آغا، الذي كان رجلا سديد الرأي، حسن التدبير كان له دور كبير في الدعوة إلى النفير والجهاد، ضد الأسبان الذين استطاعوا أن يختطفوا تونس مرة أخرى، وكان دوره هو " توفير الرجال والعتاد والمال للحملة العثمانية الجديدة على تونس، والتي أدت فعلا إلى السيطرة عليها وطرد الأسبان منها "(4)

وقد كان لقسنطينة بعلمائها ورجالاتها، دور كبير في هذه الحملة ضد الكفار والصليبيين، فكانت العائلات القسنطينية ومنها عائلة عبد الكريم الفقون تشحد الهمم، وتدعوا إلى الجهاد والترغيب فيه و حث القسنطينيين خاصة وكل الجزائريين عامة إلى ضرورة تحرير تونس، وقد ساعدهم في ذلك مكانتهم الدينية المرموقة، ليس فقط في

قسنطينة، بل في كل أنحاء الجزائر، ولعل ذلك ما جعل حسن آغا يكافئ عائلة الفقون بأن يعين واحدا منه على ولاية قسنطينة، حيث اختار" عالما من علماء قسنطينة باقتراح من الوزان نفسه، وهو قاسم الفقون "(5)

إذن مما سبق يمكن القول، أن قسنطينة كانت حاضرة من حواضر الدولة الحفصية، التي انهارت أمام ضربات القراصنة الأسبان، وأمام القوة المتنامية للدولة العثمانية، لكن ذلك لم يمنع البتة قسنطينة على الحفاظ على مكانتها وحصانتها، بل كانت معينا للدولة العثمانية، وسندا وقويا لها ضد الصليبين، وكان للعائلات القسنطينية ومنها عائلة عبد الكريم الفقون دورا كبيرا في الدعوة إلى الجهاد وحفظ الإسلام .

2- الأوضاع الاجتماعية في عهد عبد الكريم الفقون :

لم يختلف مجتمع مدينة قسنطينة عن المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى في ذلك العصر، حيث كان للدين دور كبير في ترسيخ قيم التكافل والتسامح بين أبناء المدينة، إلا أن ذلك لم يمنع ظهور نوع من الطبقية الاجتماعية المستمدة سواء من النسب أو المنصب ، وملكية الأراضي .

2-1- النسب :

لا شك أن للنسب دوره في تحديد المكانة الاجتماعية للأفراد في قسنطينة خلال ذلك العصر ففكرة النسب " قد تكونت تقليديا، وانتقلت الوجاهة من جيل إلى جيل آخر تماما كالموروثات المادية والمعنوية الأخرى، وقد يعود السبب إلى أصول مادية أو إلى نفوذ العائلة في المجتمع ، كما أن النسب قد يكون سببا في حصول العائلة على الثروة والنفوذ "(6)

ولعل ما ميز قسنطينة هو مدى التكافل والتضامن مابين الطبقات الغنية والفقيرة من جهة، وبين العائلات الغنية النافذة من جهة أخرى، فلم يكن الصراع دمويا عدائيا، بل كان في حدود المعقول "فالتنافس لم يبلغ حد التنافر أو التحارب وحتى ما ركز عليه

بعض المؤرخين الفرنسيين من أن العائلات القسنطينية قد انقسمت إلى فريقين، فريق بزعامة عائلة عبد المومن ، وفريق بزعامة عائلة الفقون ، ...كان مجرد اختلاق لم تؤكده الوثائق "[7]

والملاحظ هنا أن الاستعمار الفرنسي، كان دائما ما يقوم بنشر سمومه محرضا بين أفراد المجتمع الواحد بما يخلق ثارات وعداوات من وحي الخيال ، وفق مبدأ التفريق والتغليط، تغليط الأجيال الموالية ، علها في ضنه تدخل في صراعات عشائرية وقبلية و مذهبية ، عله يلهيها عن قضيتها الأساسية، قضية التحرير ومن ثم البناء.

2-2- ملكية الأراضي في قسنطينة :

كان للأرض مكانة كبيرة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فهي دليل الثراء والجاه، ولقد ساعد الناس في ذلك تحول ملكية الأرض من أنها ملك للدولة أو الحاكم الإسلامي في الإسلام، إلى ملكية خاصة لبعض الأفراد " وأورث صلاح الدين قواده إقطاعيات الأمراء الفاطميين، وهذا ما فعله المماليك والعثمانيون الذين أسندوها لكبار الموظفين "[8]

و بالنسبة لقسنطينة كان الأمر مختلفا، فالسلطة العثمانية الجديدة قد أعطت قسنطينة حق الحكم الذاتي، فحافظ بذلك وجهاؤها على نفوذهم وأراضيهم، إلا أن ذلك لم يمنع وجود طبقة فقيرة في هذا المجتمع، انتشرت بينهم السرقة والآفات الاجتماعية " ولو تتبعنا الألفاظ التي وردت عند ابن الفقون لخرجنا بقاموس هام : اللصوص الأعراب ، غمريان – جماعة أتباع قاسم بن أم هانئ "[9] .

إذن فقد كان مجتمع قسنطينة يتكون من عائلات نافذة لها سلطان كبير ليس فقط لأنها تتمتع بالثراء ولكن لأنها عائلات تستمد سلطتها من الدين، ولعل من أبرز هذه العائلات الدينية ذات النفوذ الكبير في قسنطينة هي عائلة عبد الكريم الفقون التي كانت عائلة مشهودا لها بحسن السيرة والتمكن في العلم .

وصحيح أن التكافل بين المجتمع القسنطيني هو الميزة السائدة في ذلكم العهد، لكن ذلك لم يمنع ظهور العديد من الآفات الاجتماعية كالسرقة، و انتشار الحشيشة والتدخين، والدجل والشعوذة، وهو ما أثر بشكل كبير في شعر عبد الكريم الفقون، وحتى في حياته .

3- الأوضاع الثقافية في عصر عبد الكريم الفقون

لقد استمدت النهضة الفكرية والعلمية ماءها ورونقها في قسنطينة من خلال قربها واتصالها الدائم بجامع الزيتونة ذائع الصيت، صاحب المنهج الإسلامي المعتدل، فكانت العلوم الدينية، وعلوم اللغة العربية، هي المسيطرة في قسنطينة، وساعد في بروز هذه العلوم نخبة من العلماء والمثقفين المجيدين الذين عاشوا في القرن العاشر الهجري" كمحمد الكماد، والوزاني، و عبد الكريم الفقون الجد وغيرهم "[10].

فانتشرت المدارس والزوايا، وراح أهل العلم يذكرون الناس بأن ما حل في المجتمع القسنطيني خاصة، والمجتمع الإسلامي عامة، إنما هو بسبب انتشار الجهل والخرافة والشعوذة، وهو ما من شأنه إسقاط الحضارات وتدميرها، خاصة إذا رافق الجهل انحطاط الأخلاق وفساد الرعية وانحلال عقدها، لذلك رأى عبد الكريم الفقون أن على الأمة أن تعود إلى سالف عهدها ، عهد الإسلام الصحيح والنقي ، فهو الوحيد حسبه الذي سيخرجها من الضلالة إلى الإيمان والنور.

لذلك نراه يدعوا علماء عصره، أن يسيروا كما سار آبائهم قبل قرن، متبعين نهجهم وخطاهم، وأن عليهم أن يتحملوا مسؤولياتهم اتجاه وطنهم " فإذا انتقلنا إلى القرن الحادي عشر الهجري ، وهو عصر عبد الكريم الفقون الحفيد، وجدنا مجموعة أخرى من العلماء ... باعوا أنفسهم للسلطة، وتنافسوا من أجل المناصب الشرعية، لم يرعوا لها حرمة لأنهم غير أهل لها "[11]

ثانيا – عبد الكريم الفقون ومدائحه النبوية

1- التعريف بعبد الكريم الفقون :

إن عائلة الفقون من أعرق العائلات القسنطينية و أشهرها، عائلة ذات دين وصلاح وجهاد، عملت على حل مشاكل الناس " وكان شيخ البلد في قسنطينة، وهو شيخ الإسلام في آن واحد، ينتمي إلى أسرة الفقون، وباعتباره ممثلا للأهالي ، ويملك حق الشفعة، يعمل على حماية أهل البلاد من ظلم السلطة التركية بكل ما لديه من سلطة "(12)

من هنا تتضح لنا المكانة السامقة والرفيعة لهذه الأسرة مكانة لم تأت صدفة بل كانت نتيجة قبول شعبي لها، وذلك لما لمسوه من جهود صادقة لديها طيلة قرون عديدة من خلال دودها عن كل ما هو عربي وإسلامي، فهي لم تهادن السلطة التركية ولم تشتر منصبا أعطي لها كمنحة، بل أن السلطة التركية هي من هادنتها لعلمها بمكانة آل الفقون وعراقتهم.

ولقد ولد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفقون في قسنطينة سنة 988هـ – 1580 م ، وسمي على جده، تلقى العلم في مسقط رأسه على يد علماء أجلاء، كما أفاد من تردد علماء من الشرق و الغرب على قسنطينة من كتبه : فتح اللطيف في علم التصريف ، محدد السنان ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية.

2- أربع قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

2-1- مناسبة القصائد :

كتب عبد الكريم الفقون قصائده الأربع في مدح الرسول (ص) عندما كان مريضا مرضا شديدا هدم جسمه، فأصبح ذابلا وعليلا، لينظم هذه القصائد متوسلا

برسول الله (ص) رجاء الشفاء والبرء، فلقد"عرفنا أن مرضه طال عليه ولم يعرف له سببا أو علاجا . قال إنه ظل سنة لا ينام أبد، وسنة لم يغشاه النوم إلا قليلا "[(13)]

2-2- المطلع :

يبدأ عبد الكريم الفقون مدائحه للنبي (ص) بتشبيهه بالبدر، وهو تشبيه تقليدي، فكأن الرسول (ص) قد جاء ليضيء سماء البشرية الحالك بدعوته العالمية الخالدة، هذا البدر الذي بدت وظهرت كراماته في بني الإنسان ممن خفقت قلوبهم بالحياة ، فهو النور المتلألئ الذي تسعد لمقدمه الأكوان هذا الذي تبوء رتبة عالية عند الله، لأنه استطاع أن يتجاوز مراتب العرفان .

أبدرا بدت في الخافقين سعوده

ونورا به الأكوان أضحت تلألأ

له في العلى أعلى العلى رتبة وفي

مراقي ذرى العرفان قدما مبؤا

أضاء وجود الكائنات ببعثه

وطلعته الغرا من الشمس أضوأ [(14)]

يواصل الفقون مدحه للنبي (ص) عندما يشبهه بالغيث الذي يحي الأرض بعد موتها، كيف لا وهو خاتم الرسل، الذي أكمل رسالاتهم ، معيدا إحياءها من جديد.

هو الغيث أحي الأرض بعد مماتها * وخاتم كل الرسل ثمت مبدأ [(15)]

وهاهو يدعوا أحبائه ليبوح لهم بسر من هتك ستائر قلبه إنه الرسول(ص) سيد الأحباب، محبوب له العز نسبا وقدرا ، هو النور الذي لا تخبوا أشعته، كيف لا وهو خير عباد الله كلهم، تنطفئ الأنوار في حضرته ولا تكاد تبين من نوره الأخاذ المتلألئ ، يقول عبد الكريم الفقون في وصف ذلك:

أحبتنا إني كلفت بحب من * له العز قدما والرسالة منصب

لدى نوره الأنوار تخبوا وكيف لا * ومنه استمدت والشواهد تكتب

أيا سيدا فاق النبيئين كلها * وبدرا له فوق المراتب مرتب(16)

2-3- الرسول (ص) وأهوال القيامة :

يصور عبد الكريم الفقون الرسول (ص) في مشهد حسي بصري، حاملا لواء الحمد، حمد الله عز وجل، في مشهد سكتت فيه كل الخلائق، مذعنة فيه للواحد القهار، عندها يلتجأ المسلمون إلى نبيهم المختار، فهو وحده المخول بالكلام لينقذهم من شر كل بؤس وغم، عندما يحشر الناس أمام رب العالمين ضعافا، منكسرين، واجفين وجلين، لعظمة هذا اليوم، يقول عبد الكريم في ذلك.

يرى ذا لواء الحمد في الحشر إذا غدا * فكينا وفي الأحوال للخلق ملجأ (17)

2-4- صفاته الخُلقية :

يصف عبد الكريم الفقون بلغة جميلة لا تكلف فيها الصفات الخُلقية للرسول (ص) ، فهو ليس كباقي البشر ، هو المكين، الأمين، الصادق، الوفي، كيف لا وقريش كلها اعترفت له بأمانته وصدقه، حتى لقب بالصادق الأمين، يقول الفقون عادا مناقب وخصال الرسول :

أمين مكين صادق الوعد مرتضي * به القلب يجلى عما كان يصدأ

مآثره محمودة فوق ما أتى * به من بديع الذكر للعرف ينشأ

....

نبي له الجاه العظيم فمن أتى * حماه نجا والهون لا عنه يطرأ (18)

وتتجلى عظمة الرسول (ص) بحسب الفقون أنه لم يدع بالسوء على قومه، رغم ما عاناه من ظلم شديد تنفطر له القلوب انفطارا، وتنهمر له الدموع أسفا، بل نراه يخبأ

دعواته الخيرة إلى يوم القيامة، لينقد أمته من نار جهنم التي تشوي بحرها الوجوه ، دعوة مخبوءة تنقد كل شقي من مشهد يوم عظيم .

دعا فاستجاب في المعاد ادخارها * أراح بها كلاً فللجمع تخبأ[19]

2-5- معجزاته (ص):

أكرم الله رسوله المصطفى بمعجزات كثيرة عديدة ، معجزات سطع نورها في الأكوان وأفحمت حجتها كل مكذب فتان يرى الفقون أن سبب تعدد معجزاته إنما يعود لمكانته عند الله، ليدل على رفعته وسمو قدره ، يقول في ذلك :

له المعجزات الغر أسطع نورها * وأرفعها ذكرا من الدهر يقرأ

....

فلله كم قد حاز من معجز وكم * له من سني القدر والله يكلأ[20]

2-6- الرسول وليلة الإسراء

ويذكر عبد الكريم الفكون حوادث إعجازية تدل على صدق الرسول الكريم وهي حادثة الإسراء، فلقد أسرى الله بالرسول (ص) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهي دليل على قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في السماء أوفي الأرض يقول تعالى في وصف أحداث هذه المعجزة {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير }[21]

فلما خرج الرسول (ص) إلى الناس أخبرهم بما حصل له، فتعجبوا له وكذبوه تكذيبا شديدا، وقالوا ما آية ذلك يا محمد، فإن لم نسمع به قط ؟، فأخبرهم الرسول(ص) بما حدث لبعير قوم شاهده في طريقه قد ظل وأعطاهم وصف ما كان، فمكث المكذبون ينتظرون وصول القوم، فلما سألوهم عما جرى لهم أخبروهم بمثل ما أخبرهم به الرسول .

يستدعي عبد الكريم الفقون هذه القصة دالا من خلالها على دلائل وبراهين نبوته(ص)، واصفا كيد الأعداء والمرجفين فرغم ما شهدوه من معجزة ظاهرة فهم مكذبون ، يقول الفقون في بيان ذلك :

نهضت لهذا السر في بعض ليلة * رجعت من المسرى وما الليل يذهب

يروم العدا التنقيص عند سماعها * فما كان إلا والبراهين تضرب

أتى العير بالتصديق مرأى ومخبرا * وفي المسجد الأقصى دليل يرتب(22)

2-7- الرسول (ص) وليلة المعراج:

هذه الليلة التي عرج فيها الرسول الكريم، من الأرض إلى السماء، هي دليل حضوته ومكانته (ص) ، عروج لم يكن لنبي من قبل، وهو ما جعله (ص) قرير العين، خاصة عندما عاد بسؤله، وبعدما شاهده من نعيم للمؤمنين والأتقياء كما تتجلى عظمة هذه الرحلة عند الفقون ، في أن الله قد فرض فيها الفرائض.

حوى ليلة المعراج كل فضيلة * وأم بها نعم الإمام المبرأ

قرين لعين عاد بالسؤال والمنى * وتوجه المولى بما هو أهنأ

أتم له بالفرض أشرف حجة * وأخدفه الأفلاك والحجب توطأ(23)

ويقول كذلك :

وتوجت يا محبوب تاج كرامة * وبالكأس من بحر المعارف تشرب

حظيت لما حييت من خلعة البها * وطوقت فرضا بالمهابة يرقب

أتيت كلام الله بعد تردد * إليه بتخفيف لما كان يصعب(24)

وفي أبيات من قصيدة أخرى، ها هو الرسول (ص) يدنوا إلى سدرة المنتهى، متجاوزا كل الخلائق من ملائكة وبشر فحتى جبريل لم يستطع التقدم، كيف لا والرسول (ص) قد علم سر الأسرار، فبه ارتقى إلى أعلى عليين، فهو الحبيب المحبوب الذي ارتقى إلى مراتب العرفان، هو الذي يسأل فيعط، لا يسأل لنفسه بل لأمته، لكي يخفف الله

عنهم ما فرضه عليهم، رحمة لهم وحبا في أمته ن اسأل تعط كسر لحجاب الذات والنفس، ترفع قدسي باتجاه الأنوار القدسية.

حللت من العرفان كل محلة * بذا كانت الأرسال تنبي وتخطب
قرأت سطور السر لما سريت إذ * تقدمت عن جبريل تدني وتقرب
أتاك الندا يا أفضل الخلق أقبلن * فكنت كقاب القوس بل أنت أقرب
لك البغية العظمى فسل تعط و أرغبن * ألجنا لك الأكوان إذ فيه ترغب[(25)]

2-8- الأصابع والماء:

هي واحدة من معجزات النبي، أراد الله بها أن يكرم رسوله وفق معجزة ملموسة ظاهرة تفجرت من خلالها بركات النبي (ص) ، فهاهو النزر اليسير من الماء القليل يتوظأ منه الجمع الغفير، بل الجيش العرمرم الكثير" رأيت الرسول (ص) وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله (ص) بوضوء ،فوضع رسول الله (ص) في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضئوا منه، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس، حتى توضئوا عن عند آخرهم "[(26)]

يقول عبد الكريم الفقون في وصف ذلك :

وكم له من آي كريم شهيره * أصابعه أروت إذا الجيش يضمأ[27]

2-9- حنين الجذع وشق القمر :

من معجزات نبوته (ص) التي ذكرها الفقون في مدحه للنبي (ص) هو حنين الجدع لرسول الله (ص) حيث يستحضر الفقون هذه الحادثة للدلالة على أن الجمادات تحب الرسول (ص) ، فكل ما على الأرض إلا محب له ومصل عليه فهاهي" امرأة من الأنصار قالت لرسول الله (ص) ألا أفعل لك شيئا تقعد عليه ؟ ، فإن لي غلاما نجارا ، قال إن شئت ، قال فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي (ص) على المنبر الذي صنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتى كادت تنشق "[(28)]

كما يستحضر عبد الكريم الفقون ، معجزة فريدة جاء ذكرها في القرآن الكريم، وهي معجزة انشقاق القمر التي هي من أعظم المعجزات الكونية التي تدل على اقتراب الساعة وفق حدث لا مكرور هو انشقاق القمر،يقول تعالى في بيان هذه المعجزة وعظمتها {اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر }[29]

ويرى جمع من المفسرين" أن أهل مكة سألوا الرسول (ص) أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء- جبل بمكة - بينهما "[30]

يقول عبد الكريم الفكون في ذكر المعجزتين :

حنين لجذع وانقياد لدوحة * كما قمر قد شق نافيه يسنأ[31]

2-10- معجزات مولده (ص):

يستحضر عبد الكريم الفقون، حدثا مهما في تاريخ البشرية جمعاء هو حدث ولادة الرسول (ص) ، فبولادته عم الفرح في الأكوان، وراحت الأفلاك والكواكب تتغنى فرحا بمقدمه، وهاهي الملائكة تسعى سعيا حثيثا لخدمته، كيف لا وهو مبعوث الله وحامل رسالته إلى أهل الأرض جميعا، يذكر الفقون معجزات الرسول (ص) عند وضع أمه آمنة له مستحضرا صورها من السيرة النبوية العطرة، فحين حملت به قيل لها " إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من الشام "[32]

ليذكر لنا الشاعر بعدها جزء من الصفات الخلقية للنبي (ص) ، فهو المكحول العين، جميل الطلعة، يأخذ ذلك بن الفقون من وصف الصحابة له " فعن جابر بن سمرة قال: ... كنت إذا نظرت إليه قلت أكحل العينين وليس بأكحل "[33]

كما يستدعي عبد الكريم الفقون معجزة الخاتم، خاتم النبوة الذي يدل على صدق نبوته (ص) " كان خاتم رسول الله –الذي ين كتفيه – عدة حمراء مثل بيضة الحمام (34)"

يقول عبد الكريم الفقون في كل ذلك :

لمولده الأسنى تدلت كواكب * وحفت به الأفلاك وازدحم الحفل

مزاياه عند الوضع جاءت شهيرة * فقد حضرته العين لما انقضى الحمل

مكارمه أبدت إذ ذاك فضائلا * لذا جاء مسورا بكحل الهدى طحل

دنت شرفا للهاشمي محمد * ملائكة تسعى لخدمته تعل

وقد صانه الرحمن من كشف سوأة * توالد مختوما فليس له مثل(35)

2–11– الشكوى من المرض

بعد أن اختتم عبد الكريم الفقون ذكره لفضائل الرسول العظيم، نراه يتضرع إلى الله بجاه نبيه (ص) ومكانته عنده لكي يشفي كربه، فجسمه قد ذبل وانحل، فهاهي الأمراض تغزوه، فكأن حال لسانه يقول: يا رب ادعوك باسم نبيك المصطفى خير الأنبياء وأحبهم إليك، إلا شفيتني وعافيتني، يقول في وصف حاله وشدة مرضه :

أيا خير خلق الله أنهيت قصتي * إليك فإن الجسم بالسقم يرزأ

أنلني المنى من جود طولك أنني * على ظمإ من منهل العذب أملأ

منادي الشفا مما به الجسم مبتلى * فذو الآلام ينجوا ويبرأ (36)

فالغوث الغوث لمن جاءك مستغيثا ببابكم ، والعون العون يا رسول الله :

ينادي عليل الجسم غوثا ببابكم * فيشفى كما الأسقام عن ذاك تسلب(37)

ليرتدي عبد الكريم لباس المتصوف في محرابه الزاهد مواصلا دعوته للرسول (ص) بأن يشفيه ببركته، متوسلا عند بابه بدموعه الغزيرة ، ذاكرا مصابه الجليل من نحالة جسم ومرض شديد، هذا بالنسبة للجسم، أما الروح فهي ذائبة في مسالك الوجد والعشق

الإلهي، زادها الشوق ، لملاقاة الحبيب المصطفى، وهاهي أضلعه تحترق احتراقا شديدا، آملة في وصل الحبيب لها، مشبها حالته بالملدوغ الذي لدغته رقطاء، أو كمن تناصلته النبال، فهو في المابين، وما بين المابين ، يبقى القلب في شوق وتطلع عله يرى ساطع نور النبي (ص) ،يقول الفقون في وصف ذلك :

أعني جودا بالدموع تأسفا * لصب نحيل الجسم زايله عقل
لدا غصني لفح من الحب فأنتجت * محاسن وجه ذاب إذ بقي الشكل
أذاعت شهود الوجد كامن دفقه * فأضحى المحيا كاسفا ضاء من قيل
حللت لنيران النوائس أضل * فيا ليت كان الوصل وانتظم الشمل
يبيت من الأشواق قلبي معذبا * كملدوغ رقط أو تناصله النبل(38)

3- معجم القصائد

احتوى المعجم العام للقصائد على معاجم ثلاثة صغرى ، لها دلالاتها السيميائية، حيث ينفتح الدال الواحد على مجموعة لا متناهية من الدوال الأخرى ، وهذه المعاجم هي :

3-1- معجم النور : البدر ، تلألأ ، ضوء ، سطع ، الأنوار ، الإشراق ، الشمس .

3-2- معجم الظلام : الموت ، يرزأ ، ظمأ ، الآلام ، عليل ، نحيل ، ملدوغ ، تناصلته النبل

3-3- معجم الصوفية : كلفت ، شهود ، الوجد ، نيران ، سكرتي ، العرفان ، محبوب، الكأس، بحر المعارف .

إن معجم النور يحيل على الطهارة، والصفاء، والنقاء، فهو من أسماء الله الحسنى، يتجلى هذا النور الإلهي المشرق في شخص نبيه محمد لذلك فهو كالبدر والشمس

تلألأ وجمالا وضياء، فعندما يستخدم الشاعر هذا المعجم فهو يمنح الأمل له من أجل الشفاء .

أما المعجم الثاني فهو معجم الظلام وهو ضد النور، يتمثل الظلام هنا فيما يعانيه عبد الكريم الفقون من تبدل حال تبدل الصحة إلى مرض، فجسمه الشاب قد دوى ، يتجلى ذلك من خلال : الرزايا والبلايا والآلام التي أصابته ، فأصبح نحيلا عليلا ، يعاني الأفول والموت .

لقد حل الظلام مكان الإشراق النفسي لعبد الكريم الفقون، لذلك نراه يلجأ إلى إشراق من نوع آخر ، إشراق لا يضمحل ولا يتلاشى هو إشراق نور النبوة.

وحتى يستحضر ألق هذا الإشراق النبوي، كان لابد من معجم يفتح له الطريق قدما لمرأى هذا النور، وهو معجم الصوفية ، الذي يحمله ولوجا عبر مراتب خاصة لا يعرفها إلا أهل الحضرة ، أهل العرفان ، خاصة الخاصة، إنها مراتب العشق والوجد ، عشق النبي، فسلوك المراتب وتأملها هو وحده الذي يجعل نور النبوة ظاهرا في أسمى تجلياته، غامرا القلوب الثكلى المريضة، ليعيد النور الذي تلاشى خلف الظلام ، ظلام المرض والوهن .

4- بحر القصائد :

جاءت قصائد عبد الكريم الفقون في مدح الرسول على وزن بحر الطويل، و البحر الطويل من أطول البحور الخليلية الشعرية ، فهو يحتوي على ثمان تفعيلات، ومفتاحه هو :

طويل له دون البحور فضائل * فعولن مفاعلن فعولن مفاعلن

إن اختيار الفقون لبحر الطويل لم يكن اختيارا نابعا من وقع الصدفة بل كان اختيارا مدروسا، فبحر الطويل هو أنسب البحور الشعرية لغرض المدح ذلك أن تفعيلاته الطويلة تمنح الشاعر القدرة على الإحاطة بفضائل الممدوح وصفاته ومناقبه ، وهو ما لا

يتحقق في باقي التفعيلات القصيرة ، فالممدوح هنا ليس كغيره من الممدوحين، فهو خير عباد الله كلهم لا تتناهى صفاته، ففي كل كلمة من كلمات شعره التي تسيل حبا وعشقا للرسول، أشعة نور لا تنجلي تبرئ المكلومين عل نور سناها يحل في قلب عبد الكريم الفقون، جاعلا وحشة المرض سلامة.

- **خاتمة** :

عبد الكريم الفقون شخصية فذة في تاريخنا الجزائري، وجب التعريف به وبيان دوره و إسهاماته العلمية ومواقفه الإصلاحية للأجيال القادمة ، حتى لا تقع القطيعة بين السلف والخلف، وبعد القراءة الممتدة عبر قسمي هذا البحث ، توصلت إلى النتائج التالية :

- عبد الكريم الفقون ينتمي إلى أسرة ذات علم وصلاح ، لها مكانتها في قسنطينة .

- عاش عبد الكريم الفقون في قسنطينة خلال الحكم العثماني، ويعد من ابرز علمائها .

- كتب عبد الكريم الفقون قصائده في مدح الرسول بعد مرضه حيث توسل إلى الرسول أن يشفيه ببركته .

- يغلب المعجم الصوفي على مدائح عبد الكريم الشعرية.

وفي الأخير، أتمنى أن يكون هذا البحث قد ألم ولو بشكل بسيط بمدائح عبد الكريم الفقون، ليبقى مجرد محاولة إنسانية محكومة بالفشل لا بالنجاح .

قائمة الهوامش

[1] – عبد الرحمن ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج 1 ، ط3 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1967 ، ص 521.

[2]- أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ، ص 12.

[3] – رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ط3 ، دار الهدى ، الجزائر ، ص 339.

[4] – أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ،ص 14.

[5]- المرجع نفسه: ص15

[6] – ملحم بركات : المجتمع العربي المعاصر ، ط9 ، مركز الوحدة العربية ، بيروت ، 2008 ، ص 146.

[7] – أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، ص ص21 – 22

[8] – ملحم بركات : المجتمع العربي المعاصر ، ص 145.

[9] أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، ص 25

[10]– المرجع نفسه : ص 40.

[11]– المرجع نفسه : ص 33.

[12] – جميلة معاشي : الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني ، مخطوط دكتوراه ، جامعة قسنطينة ،الجزائر ، 2007، ص158.

[13]– أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، نقلا عن : أبي سالم العياشي ، الرحلة ، المغرب ، 1899، ص 57- 120 .

[14] – المرجع نفسه: ص 166.

[15]– المرجع نفسه: ص 207.

[16] – المرجع نفسه: ص 211.

[17] – المرجع نفسه : ص 207.

[18] – المرجع نفسه: ص 211.

[19] – المرجع نفسه: ص 208.

[20] – المرجع نفسه: ص208.

[21] – سورة الإسراء : الآية 01.

[22]- ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج2 ، تحقيق محمد علي قطب محمد الدالي بلطه ، المكتبة العصرية ، صيدا ، 2001، ص 46.

[23] أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ،ص 211.

[24] – المرجع نفسه : ص 208.

[25] – المرجع نفسه : ص 211.

[26] – المرجع نفسه: ص : 211.

[27] – ابن الأثير الجرزي : جامع الأصول من أحاديث الرسول ، تحقيق : محمد حامد الفقي ،ج 12، ط2 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1980 ، ص 74.

[28] – أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، ص 208.

[29] – ابن الأثير الجرزي : جامع الأصول من أحاديث الرسول ، ج 12 ، ص 68.

[30] – سورة القمر: الآية 1.

[31] – أحمد مصطفى المراغي : تفسير المراغي ، ج 27 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، دت ، ص 76.

[32] – أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، ص 208.

[33] – ابن هشام : السيرة النبوية ، ج1 ، تحقيق محمد علي قطب محمد الدالي بلطه ، المكتبة العصرية ، صيدا ، 2001،ص 120.

[34] – ابن الأثير الجرزي: جامع الأصول من أحاديث الرسول، ج 12 ، ط 2 ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1980 ص 15.

[35] – المصدر نفسه : ص 19 .

[36] – أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ، ص 213

[37] – المرجع نفسه : ص 209.

[38] – المرجع نفسه : ص211.